خـــلاف الخـــلافـــة

قبيل وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، قام بترشيح ستة من الصحابة ليتولى واحدٌ منهم منصب الخلافة ، ثم استقر الرأي على اثنين من هؤلاء الستة هما عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، فتم تخويل عبد الرحمن بن عوف للفصل في الأمر .

فجمع عبد الرحمن الناس ، وسأل كلا المرشحين عن الأسلوب الذي سيتبعه نظام حكمه ، وبدأ بعلي فسأله عما إذا كان سيقتفي أثر الصديق وعمر ؟ وإذا كان سيعمل بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟ ، فأجاب عليٌّ بالنفي وقال : " اللهم لا ، ولكن عليَّ جهدي من ذلك وطاقتي " .

أما رد عثمان فكان بالإيجاب ، وقال : " اللهم نعم " .

فأمسك عبد الرحمن بيد عثمان ، وبايعه خليفة للمسلمين .

وبايع عبد الرحمن بن عوف عثمانَ بن عفان ، فقال : " ... اللهم اسمع واشهد ، اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان " .

وكان أن بايع الجميع عثمان خليفةً وإماماً وأميراً على جماعة المسلمين . وكان ذلك في بداية عام 24 من الهجرة . ويمضي حكم عثمان بسلامٍ ، إلا إنه بعد ست سنوات من هذه البيعة ، إذا بالحال ينقلب والأوضاع تتبدل والصحاب تختلف ، وإذا بجماعاتٍ مناهضة تتكون ، ثم تتمرد ، ثم تنقلب على الخليفة .

فكيف حدثَ هذا ؟ ولماذا ؟

نقولُ مبدئياً إنه طرأ حينذاك تغيرٌ عظيم على مجتمع الأمة ذاته أدى إلى تغييرٍ عميق في تركيبة هذا المجتمع اقتصادياً واجتماعياً نشأ عنه صعود طبقة ثرية صار لها طموحٌ ومصالح اختلفت عن طموح ومصالح الأغلبية .

فإذا فتشنا عن سبب هذا التغيير الخطير وتاريخ نشأته لعدنا إلى عصر ما قبل عثمان بن عفان ؛ لنجد أن عمر بن الخطاب كان بعيد النظر حين فطن إلى هذا الخطر قبل وقوعه ؛ فقام بمنع الصحابة من مغادرة " المدينة " ، وحظر عليهم الانتشار في البلدان المفتوحة .

وكان عمر عالماً بقدر هؤلاء ومدى تأثيرهم ، فهم زعماءُ الأمة ، القدوة والأسوة ، والقوة النافذة المؤثرة في جموع المسلمين ، وتتبدى أهمية ذلك فيما قاله عمر نفسه مبرراً قراره الخطير ، حيث قال : " ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً ، ثم رباعياً ، ثم سداسياً ، ثم بازلاً ، فهل ينتظر بالبزل إلا النقصان ، أي فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معوناتٍ دون عبادة ، ألا فأما وابن الخطاب حيٌّ فلا ، إني قائمٌ دون شعب الحرة ، آخذٌ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار " .

ولكن ما خشي منه عمر – وكان حريصاً ألا يحدث في حياته – وقع بعد مماته ، فقد خالف عثمان نهج عمر ، فسمح بما كان ممنوعاً ورخّص للصحابة الانتشار في الدنيا ، فلما خرجوا إليها ... ما عادوا كما كانوا .

فقد فتح عثمان أمام رفاقه باباً واسعاً لثراءٍ سريع عريض ، فإذا بالنفوس تتبدل والمصالح تختلف فتبرز مواجهاتٌ ، وتنشب صراعاتٌ أدت إلى تفكك المجتمع إلى جبهاتٍ متنازعة على مصالحٍ متعارضة .

فإذا ما شئنا الاقترابَ من هذا التاريخ البعيد ؛ لنفهم ما حدث حينذاك كان علينا تأمل تفاصيل أحداث تاريخٍ صنعه أفرادٌ شاركوا في التغيير ، كلٌّ في اتجاه ما آمن به واعتقد بصحته ، وكلٌّ من منظور مصالحه أو مصالح جماعته وطبقته .

ها نحن الآن نقف أمام واحدٍ من رجالات هذا العصر وأحد أبطاله ، رجلٌ لم ينقصه العزمُ والهمة ، شريفُ المقصد ... نبيل الغاية ، صادق الوعد ... وفيٌّ للعهد .

إنه أبو ذر الغفاري ، حامل لواء معارضة هذا الانقلاب الاقتصادي الذي طالما حاول صاحبه العظيم عمر بن الخطاب الحيلولة دون وقوعه .

قد يعود موقف أبي ذر هذا إلى رؤيةٍ شخصية وموقف شخصي واقتناع شخصي بمفهومٍ معين للحياة بشكلٍ عام . فقد كان الرجل زاهداً ، لا يأبه بمباهج الحياة وزخرفها ، معطياً ظهره لها . وقد تكون لنشأة أبي ذر الأولى في قبيلة غفار – التي كان لا يدانيها

أحدٌ في قطع الطريق – أثرها في نفْس أبي ذر وسلوكه ، وقد نلمح ذلك في مقولته المشهورة : " عجبتُ لِـمَـنْ لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه " .

لم يكن أبو ذر يخشى أحداً أو شيئاً ، وهو الغريبُ الضعيف بلا سندٍ أو ولي ، إذ إنه يدخل المسجد الحرام صائحاً في وجوه جبابرة قريش في عقر دارهم :

" أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " .

وجديرٌ بالذكر هنا أيضاً أن أبا ذر دخل على الرسول ﷺ ، وخلفه قبيلتان كاملتان معلنتين إسلامهما .

ويقيناً كان النبي محمد ﷺ قد خبر طبائع خليله وعرف ملامح شخصيته وسبر غور نفسه حين توجه إليه بالسؤال المهم التالي :

" يا أبا ذر كيف أنت إذا أدركك أمراء يستأثرون بالفيء ؟ " .

وكان رد أبو ذر متوقعاً ، إذ قال : " إذن والذي بعثك بالحق لأضربن بسيفي " .

فكانت النصيحة الرقيقة من المعلم ذي البصيرة :" أفلا أدلك على خير من ذلك ... اصبر حتى تلقاني " .

كانت نصيحة الخليل الأعظم لصديق صادق وصاحب وفيٍّ ، وهو مَن قال فيه النبي ﷺ أيضاً : " ما أقلَّتْ الغبراء وأظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر " .

لقد كان النبي ﷺ بمثابة الخليل المعلم بالنسبة لأبي ذر الذي يُرجع إلى خليله العظيم ما أدركه من أخلاق : " أوصاني خليلي بسبع ، أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى مَن هو دوني ولا أنظر إلى مَن هو فوقي ، وأمرني ألَّا أسأل أحداً شيئاً وأمرني أن أصل الرحم ، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أُكْثِرَ من : " لا حول ولا قوة إلا بالله " .

أما الكاتب الإسلامي المعاصر الأستاذ خـالـد محمد خالد ، فيجمل ويبلور موقف أبي ذر ، فيقول عنه ... إنه :

" عاش يناهض استغلال الحكم واحتكار الثروة ، عاش يدحض الخطأ ، ويبني الصواب ، عاش متبتلاً لمسئولية النصح والتحذير ، يمنعونه من الفتوى فيزداد صوته بها ارتفاعاً ويقول لمانعيه :

" والذي نفسي بيده لو وضعتم السيف فوق عنقي ، ثم ظننت أني منفذاً كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تحتزوا لأنفذتها . وياليت المسلمين استمعوا يومئذٍ لقوله ونصحه إذن لماتت في مهدها تلك الفتنة التي تفاقم فيما بعد أمرها واستفحل خطرها وعرضت الدولة والمجتمع والإسلام لأخطار ما كان أقساها من أخطار " .

نعم ، لقد حذَّر أبو ذر الغفاري مِن خطر رآه يدهم الأمة ، ثم نبَّه وجاهر رافعاً صوته عالياً في مواجهة رفاق الأمس متعجباً من تبدل حالهم وتغير مآلهم ، فيعاتبهم عتاباً مريراً ، فقد لقيَ أبو ذر صاحبه أبا هريرة ، الذي أقبل عليه ، فإذا بأبي ذر يقول له :

" إليك عنِّي ، ألستَ الذي وليت الإمارة ، فتطاولت في البنيان واتخذت لك ماشية وزرعاً " .

وإذا أقبل أبو موسى الأشعري على أبي ذر محيياً ، فإنه يعرض عنه ويقول له : " لستُ بأخيك ، إنما كنت أخاك قبل أن تكون والياً وأميراً " .

هي الإمارة التي عُرضت أيضاً على أبي ذر ، فرفضها بحسم ، وقال : " لا ، واللهِ لن تميلوا عليَّ بدنياكم أبداً " .

لقد رفض أبو ذر ما قبله غيره من ثراءٍ وإمارة مدركاً مغبة ثراء زعماء الأمة وانتسابهم لطبقة جديدة انسلخت عن جسد المجتمع الإسلامي ، وها هو يواجه هؤلاء ويذكرهم بماضيهم القريب ، فيقول لهم :

" أما أنتم الذين نزل فيكم القرآن على الرسول ﷺ وهو بين ظهرانيهم ؟ نعم ، أنتم الذين نزل فيكم القرآن وشهدتم مع الرسول المشاهد ، أوَلَا تجدون في كتاب الله هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ

وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة : ٣٤ – ٣٥] .

في وجه هذا التغيير الاقتصادي الحاد رفع أبو ذر شعاراً اشتهر به ، وظل يردده في حله وترحاله ، فيقول :" بشر الكافرين بمكاوٍ من نار يوم القيامة " .

وكان أبو ذر الغفاري قد عارض الخليفة عثمان بن عفان أيضاً في منحه الصلات والأموال والجوائز لأصحابه والمقربين منه .

وفي هذا يروي المسعودي أن أبا ذر حضر ذات يوم مجلس الخليفة عثمان ، فسمعه يقول لمن حوله :

" أرأيتم من زكى ماله هل له فيه حق لغيره ؟

فقال كعب : لا يا أمير المؤمنين .

فدفع أبو ذر في صدر كعب ، وقال له : كذبت يا بن اليهودي ، ثم تلا : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : 177] .

فقال عثمان : أترون بأساً أن يأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكيموه ؟

فقال كعب : لامساس بذلك .

فرفع أبو ذر عصاه ، فدفع بها في صدر كعب ، وقال : يا بن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا !

فقال عثمان : ما أكثر أذاك لي ! غيِّب وجهك عني فقد آذيتنا " .

فخرج أبو ذر إلى الشام ... !!

هكذا بدأ الصدام بين الخليفة عثمان والصحابي أبي ذر ، الذي انتهى بمغادرة الصحابي مقر الخلافة ؛ لينتقل إلى الشام حيث كان معاوية بن أبي سفيان والياً .

وفيما يبدو أن القدر هو الذي ساق أبا ذر (تحديداً) إلى ولاية الشام (بالذات) لتتسع مساحة الصدام ويستعر الخلاف .

فما رفضه أبو ذر في المدينة وأنكره على الخليفة نفسه ، وجده يحدث على يد واليه على نحو أعظم وأخطر ، وهو ماعبَّر عنه الأستاذ خالد محمد خالد ، فقال :

" ... هناك في الشام حيث معاوية بن أبي سفيان ... وأنه ليعطي الأموال ويوزعها بغير حساب ... " .

لم يكن لرجلٍ مثل أبي ذر أن يسكت عن أمر كهذا ، فصار ينتقد هذا الوضع علانيةً ، وصار الناس يجتمعون حول الصحابي الجليل الشجاع ، الذي أخذ يردد في كل مكان الآية الكريمة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة : ٣٤ – ٣٥] .

ويرى الوالي (معاوية) في وجود (أبي ذر) في (الشام) خطراً على ملكه ونفوذه ، وهو ما يبرز واضحاً فيما كتبه معاوية إلى (الخليفة) ، فقال :

" إنَّ أبا ذر قد أفسدَ الناسَ في الشام " .

فيعود أبو ذر مرةً أخرى إلى المدينة بناءً على أمر الخليفة الذي يستقبله ، ويطلب منه الإقامة بجواره ، ويقول لأبي ذر : " ابقَ هنا بجانبي تغدو عليك اللقاح وتروح ... " .

لكن أبا ذر يرد بحسم : " لا حاجة لي في دنياكم " .

وفي هذه المرة كان على الصحابي الثائر أن يغادر المدينة إلى الربدة .

ومن الجدير بالذكر هنا أن أبا ذر لم يقصد قط التمرد على الخليفة ، وهو ما يتجلى فيما قاله هو نفسه :

" والله لو أن عثمان صلبني لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيراً لي " .

هكذا ومِن خلال استعراض الخلاف بين الصحابيين عثمان بن عفان وأبي ذر الغفاري نستطيع أن نصل إلى أن معارضة الخليفة قد تبلورت في نقطتين مهمتين أولاهما سماح الخليفة بإثراء وجهاء القوم وزعمائهم ، وثانيتهما هي حرية الخليفة والولاة في التصرف في أموال المسلمين دون حساب أو رقابة .

وفي هذا يقول الدكتور طه حسين :

" ولم يقف عثمان عند هذا الحد من تجاوز سيرة عمر في سياسته العامة ، وإنما خالف هذه السيرة مخالفةً أشد من هذا كله خطراً ، فأذن لكبار الصحابة في أن يتفرقوا في الأمصار ويخرجوا من الحجاز ويلموا بالأقاليم ، وكان عمر يحبسهم في المدينة ويأبى عليهم الخروج إلى الأقاليم إلا بإذنٍ خاص منه . وكان يقول إنه واقف لقريش بشعاب الحرة فآخذ بحجزها فحائل بينها وبين الفتنة . فقد ألغى عثمان هذا الحجر . وإذا زاد عثمان في العطاء ، ثم تجاوز ذلك إلى الصلات والجوائز ، ثم أذن لأصحاب هذه الجوائز والصلات أن يتفرقوا في الأرض ويتصلوا بالجند الغالبين وبالرعية المغلوبين ، فأي غرابة في أن يعظم ثراء هؤلاء الناس من جهة ويكثر أتباعهم وأشياعهم من جهة أخرى ، ويصبح كل واحد رئيس حزب من الأحزاب يراه أحق الناس بولاية أمور المسلمين ، وينتهز الفرصة ليمكنه من ولاية أمور المسلمين " .

***

وكان الصحابي الجليل عمار بن ياسر ممن أخذوا على الخليفة عثمان بن عفان عطاءه لأهله من بيت مال المسلمين . وهو ما رواه ابن جرير الطبري في " كتابه تاريخ الموك والممالك "، فقال بأن عثمان :

" استسلف لنفسه من بيت الله المعمور مائة ألف درهم وكتب عليه بها حجة وأداها عند الأجل ، ثم أراد أن يستسلف شيئاً آخر فمنعه صاحب بيت المال ، وعرف المسلمين ذلك فخطب عثمان رضي الله عنه ، وقال : إنا نستسلف من بيت مالكم ، ونرد

عليكم ، ثم تكلم هذا السفيه فسمعتم منه ، ولعمري لنأخذنَّ حاجتنا وإن رغم أنف أقوام . فقال عليٌّ : إذن تُمنَع من ذلك ويُحال بينك وبينه . وقال عمار : أشهد الله أن أنفي أول راغم ، فأمر به عثمان فضُرب حتى غُشيَ عليه " .

وعلى كلٍّ ، فقد كان من أهم مآخذ الثائرين على عثمان هو بذله المال لأقربائه ، ومما يروون في ذلك أن عثمان :

" أعطى عمه الحكم من بيت مال المسلمين في دفعة واحدة مائة ألف درهم وأعطى مروان بن الحكم لما زوجه ابنته خمس غنائم أفريقية ، ومنع آل محمد ﷺ خمسهم الذي فرضه الله تعالى لهم في كتابه العزيز ، ودفع إلى أربعة أنفار زوجهم بناته أربعين ألف درهم ، أحدهم مروان ، وأطعم مروان البصرة وأخرجها من فيء المسلمين " .

وكذلك سماحه لعمه الحكم بن أبي العاص وولده بالعودة إلى المدينة ، ثم تنصيبه مروان بن الحكم كاتباً له .

وهكذا نستطيع أن نرجح أن عمار بن ياسر قد اتفق مع أبي ذر الغفاري في معارضة طبقة الأثرياء ، التي نشأت في عهد عثمان واستمرت في عهد معاوية ، ففيما بعد ولاية عثمان وأثناء استعار نار الفتنة بين المسلمين نجد عماراً يصيح بمَن حوله :

" أيها الناس سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان ، ووالله ما قصدهم الأخذ بثأره ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرؤوها ، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيه من شهواتهم ودنياهم " .

هكذا يصعد إلى مسرح الأحداث صحابيٌ كبير آخر ، حاملاً لواء المعارضة لسياسة الخليفة ، إنه عمار بن ياسر الذي كان أبوه قد خرج من اليمن ، ثم أقام في مكة ليتزوج هناك سمية بنت الخياط التي أنجبت له عماراً .

وقد صارت هذه الأسرة الصغيرة الفقيرة الغريبة مضرب الأمثال في تحمل إيذاء كفار قريش في سبيل إيمانهم بالله ورسوله ﷺ .

وقد بلغ حب الرسول ﷺ لعمار حد أنه قال : " مَن عادى عماراً ، عاداه الله ، ومَن أبغض عماراً ، أبغضه الله " .

يقول طه حسين في كتابه " الفتنة الكبرى " : " على أن سخاء عثمان لم يقف عند هذا الحد ، إذ لم تكن الأيام تتقدم بخلافته حتى أخذ يصل الأعلام من أصحاب النبي بالصلات فوق ما كان لهم من العطاء المفروض ، فهو فيما يروي ابن سعد (*)[1] ، قد وصل الزبير بن العوام بستمائة ألف ، ووصل طلحة بمائتي ألف ، ونزل له عن دين كان عنده " .

***

وكان من أهم مآخذ الثوار على الخليفة عثمان بن عفان توليته بعض أقاربه حكم بعض الولايات ، فقد جعل على مصر أخاه في الرضاعة عبد الله بن أبي سرح ، كما عقد ولاية البصرة لابن خاله عبد الله بن عامر . أما أخوه من أمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فقد ولّاه الكوفة . وفي هذا يروي الطبري : " وفي سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان والقدح فيه . ومن جملة الأمور التي يقيمها عليه الناس : ردّ عمه الحكم بن أبي العاص إلى المدينة ، وكان النبي ﷺ قد طرده إلى الطائف ، ولم يرده أبو بكر ولا عمر . ومنها عزله عن الكوفة سعد بن أبي وقاص ، أحد رجال الشورى ، وتولية الوليد بن عقبة بن أبي معيط مكانه مع شربه الخمر ، واشتهاره بالفسق " .

وعن إيثار عثمان لأقاربه ومحاباته لهم نقرأ في تاريخ الخلفاء للإمام جلال الدين السيوطي : " وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعداً عن الكوفة ، وولّى الوليد بن

(*) المؤرخ ابن سعد ، صاحب كتاب " الطبقات الكبرى " .

عقبة بن أبي معيط – وهو صحابي أخو عثمان لأمه – وذلك أول ما نقم عليه لأنه آثر أقاربه بالولايات ... " .

وفي السياق نفسه يقول الإمام جلال الدين السيوطي في " تاريخ الخلفاء " :

" وليَ عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً ، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب ؛ لأن عمر كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم ، ثم توانى في أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر ، وكتب لمروان بخمس أفريقية ، وأعطى أقرباءه وأهل بيته المال ... " .

وهو ما يذكره أيضاً الطبري في " تاريخ الملوك والممالك " ، فيقول :

" ... ومنها إعطاؤه مروان بن الحكم بن أبي العاص خمس غنائم إفريقية ، وهي على ما قيل خمسمائة ألف دينار وأربعة آلاف دينار " .

وكان نتيجة ذلك أن كره نفر من الصحابة ولاية عثمان على حد قول الإمام السيوطي ، الذي يعلل ذلك ، فيقول : " لأن عثمان كان يحب قومه (...) ، وكان كثيراً ما يولِّي بني أمية ممن لم يكن له مع رسول الله ﷺ صحبة فكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد ، وكان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم ... " .

وكان هؤلاء الولاة من أهم أسباب الثورة على عثمان ، كما صارت البلاد التي تولوا إمرتها هي بؤر الثورة المتأججة ضد الخليفة ، وكان الذين اجتمعوا لقتل عثمان من هذه الولايات الثلاثة مصر والكوفة والبصرة .

وعن سوء سيرة والي الكوفة – قريب عثمان – الوليد بن عقبة يروي المسعودي :

" أن الوليد كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله ، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح ، فصلى بهم أربعاً ، وقال : أتريدون أن أزيدكم ؟ وقيل إنه قال في سجوده ، قال وقد أطال : اشرب واسقني ... " ، ويضيف المسعودي مكملاً روايته عن والي الكوفة : " وظهر فسقه ومداومته على شرب الخمر ، فهجم عليه جماعة من المسجد ، فوجدوه سكراناً ،

مضطجعاً على سريره لا يعقل ، فأيقظوه من رقدته فلم يستيقظ ، ثم تقيأ عليهم ما شرب من الخمر ... " .

أما ابن الأثير فيقول في " الكامل فى التاريخ " : إن رجلين شهدا بذلك عند عثمان ، فسألهما عثمان : " أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب . فقالا : لا .

قال : كيف ؟ فقالا : اعتصرناها من لحيته وهو يقيء الخمر " .

وفي هذا يروي ابن الأثير أيضاً أن : " .. الوليد سكر وصلى الصبح بأهل الكوفة أربعاً وقال : أزيدكم ؟ " .

فقال له ابن مسعود : " مازلنا معك في زيادة منذ اليوم " .

وشهدوا عليه عند عثمان ، فأمر علياً بجلده ، فأمر علي عبد الله بن جعفر فجلده .

وقال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر ، نادى وقد تمت صلاتهم أأزيدكم ؟ سكراً ، وما يدري " .

وعن الوليد بن عقبة – والي الكوفة – يقول د. طه حسين : " ولم يكن المسلمون يطمئنون إلى الوليد بن عقبة ؛ لأنه غش النبي وكذب عليه وكفر بعد إسلامه وأُنْزِلَ فيه قرآناً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات : 6] .

كان ذلك حين أرسله النبي مصدقاً في بني المصطلق ، فعاد إليه يزعم أنهم منعوه الصدقة . فخرج النبي إليهم غازياً ، ثم تبين كيد الوليد " .

وكان أن عزل عثمان الوليد وأقام مكانه سعيد بن العاص بن أمية .

ثم خطب والي الكوفة الجديد في الناس ، فقال : " والله لقد بُعثت إليكم وإني لكارهٌ ، ولكني لم أجد بُداً إذ أُمرت أن أُتَمر ، إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ، ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعييني " .

وما أن تستقر الأوضاع في الكوفة حتى تنقلب الأمور لتعود إلى سيرتها الأولى ، فيروي ابن مسعود عن والي الكوفة الجديد سعيد بن العاص : " فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة ، فاستبد بالأموال ... " .

فانبرى له رجل يدعى مالك بن حارث ، اشتهر بالأشتر النخعي ، وصاح به :

" أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك ؟ " .

ثم كان أن سار الأشتر في نفر من أهل الكوفة قاصداً المدينة طالباً من الخليفة عزل الوالي .

وفي هذا يروي ابن كثير في " البداية والنهاية " : " وثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة ، وتألبوا عليه ونالوا منه زمن عثمان ، وبعثوا إلى عثمان مَن يناظره فيما فعل ، وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة وتولية جماعة من بني أمية من أقاربه وأغلظوا له في القول ... " .

واستدعى عثمان – فيمن استدعى – والي الكوفة إلى المدينة ، فلما شاء سعيد العودة إلى الكوفة منعه المتمردون عليه من دخولها بقوة السلاح .

وكما ثار أهل الكوفة ضد عثمان ثار أيضاً أهل مصر ضد الخليفة ، وتمردوا عليه وعلى واليهم – قريب عثمان – عبد الله بن أبي سرح .

أما محمد بن أبي بكر الصديق ، فقد رأى فيه ثوار مصر أهلاً لتولي أمرهم بدلاً من عبد الله بن أبي سرح ، وهو ما وافقهم عليه الخليفة . فلما مضى محمد معهم قاصدين مصر صادفوا غلاماً في الطريق يحمل رسالةً مختومة بختم الخليفة ، إلى والي مصر يأمره فيها بقتل محمد بن أبي بكر ، فرجع القوم إلى المدينة ومعهم الغلام والرسالة ، فلم ينكر عثمان أن الغلام غلامه ، وأنكر كتابته للرسالة ، فشك القوم أن مروان بن الحكم هو مَنْ كتب الرسالة ، وكان مروان كاتباً لعثمان ، ولكن عثمان رفض تسليم مروان لهم .

***

وقد وقف خلف كل واحدٍ من هؤلاء المعارضين أهله وقومه يعضدونه وينصرونه ، وهو ما نقرأه في عبارة المسعودي التالية ، وهو يعدد لنا الأقوام الذين حاصروا بيت الخليفة عثمان ، قبل اغتياله ، فيقول :

" ... وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها ، وهذيل كان منها ، وبنو مخزوم وأحلافها لعمار ، وغِفار وأحلافها لأجل أبي ذر ، وتيم بن مرة مع محمد بن أبي بكر " .

***

وللخليفة عثمان موقفٌ مع صحابي جليل آخر هو عبد الله بن مسعود ، وكان ابن مسعود قد عارض عثمان في مسألة جمع المصحف معارضة شديدة ، وكان – فيما يبدو – يرى نفسه أهلاً أن يؤخذ برأيه في هذه المسألة ، فقد قال عن نفسه : " أخذت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة ، لاينازعني فيها أحد " .

وقال أيضاً : " والله ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم به في أي شيء نزل ، وما أحد أعلم بكتاب الله مني ، ولو أعلمُ أحداً تمتطى إليه الإبل أعلم مني بكتاب الله لأتيته وما أنا بخيركم " .

أما أبو موسى الأشعري ، فقال عن ابن مسعود : " لا تسألوا عن شيء ما دام هذا الحبر موجوداً " ، وفيه أيضاً قال علي بن أبي طالب : " قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه ، فقيه في الدين ، عالم بالسنة " .

وقد شهد الرسول ﷺ نفسه لعبد الله بن مسعود ، فقال : " مَن أحب أن يسمع القرآن غضاً كما أنزلَ فليسمعه من ابن أم عبد " .

وكان ابن مسعود يخطب بالناس بالكوفة كل أسبوع ، وكان يضمِّن خطبته قوله :

" إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار " .

فأرسل والي الكوفة – الوليد بن عقبة – إلى عثمان بن عفان يفهمه أن ابن مسعود يتعرض له . فأرسل عثمان بإحضار ابن مسعود إلى المدينة .

وكان أن دخل ابن مسعود على عثمان المسجد ، وهو قائم يخطب في الناس ، فلما رآه قال : " ألا إنه قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح " .

فقال ابن مسعود : " لست كذلك ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان " .

وكان رد عثمان أن أمر بإخراج ابن مسعود من المسجد وضُرِب فكسر أحد ضلوعه .

هكذا كان إذن موقف بعض صحابة الرسول ﷺ من الخليفة عثمان بن عفان .

***

وقد يكون من المفيد هنا أن نتعرض لمواقف بعض آخر من الرموز الكبيرة ، التي كان لها تأثير – على نحو أو آخر – على مجرى تلك الأحداث التاريخية .

كان أحد هؤلاء الرموز من البيت الأموي نفسه ، وأحد المرشحين الستة للخلافة ، بل كان هو بالذات الذي أخذ بيد عثمان وبايعه بالخلافة :

إنه عبد الرحمن بن عوف ، الذي – فيما يبدو – قد شاء إبراء ذمته من البيعة لعثمان ، وإعلان تخليه عن مسئولية تنصيبه خليفة ، وذلك تحت ضغط تطورات الأحداث واتساع دائرة الثورة .

فقد جاء الثائرون إلى عبد الرحمن بن عوف يكلفونه بما رأوا فيه استكمالاً لدوره الذي لعبه في تولية عثمان خليفة ، فقالوا له :

" أنت كنت الواسطة بيننا وبين عثمان ، فامضِ إليه فأمره أن يسلم هذا الأمر ، ويعزل نفسه أو يرجع عنه ظلمه وإلا قتلناه ...

فمضى إليه عبد الرحمن فكلمه فلم يجبه ، فخرج إليهم فقال : " يا قوم إنه لم يجبني إلى ما أردتم ، وما أخذته له عليكم من البيعة ، فأنتم منه في حل ، وما لكم عليه من العهود فقد نقضه لسوء فعاله " .

ويتجلى موقف عبد الرحمن بن عوف من عثمان بن عفان على نحو أوضح في الحوار التالي ، الذي دار أيضاً بينه وبين الثائرين الذين وجهوا إليه اللوم ، فقالوا :

" هذا كله من فعالك بنا ، حيث وليت عثمان ، فلسنا نلوم من هذه الأمة غيرك " .

فقال لهم عبد الرحمن : " يا هؤلاء ، إني كنت قد أخذت لكم عليه العمل بالكتاب والسنة ، ولم أعلم الغيب ، والآن قد نكث العهد والأمر أمركم " .

فقال علي عليه السلام : " أنت يا عبد الرحمن وليته وإليك عزله ، فقد خالف حكم الكتاب " .

فقال عبد الرحمن : " يا أبا الحسن ، إنه لم يكن عندي علم بما يؤول إليه أمره ، فخذ الآن سيفك وآخذ سيفي ، فإما أن ينيب إلى الحق ويرجع إحداثه في الدين ، وإلا عزلناه " .

***

ولنذهب الآن إلى رمز كبير آخر ، وهو رجل من رجالات بني أمية أيضاً ، وهو عمرو ابن العاص الذي يتحول من أحد الرجال المحسوبين على الخليفة إلى خصمٍ له ، بل ومحرض على قتله أيضاً .

فيُروى أن عمرو بن العاص قد مضى إلى علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام ؛ ليحرضهم على عثمان بن عفان . وقد قال عمرو لنفسه :

" والله إني كنت ألقى الراعي فأحرضه على عثمان ... " .

أما سبب انقلاب عمرو على قريبه الذي كان واليه على مصر ، فيتضح لنا من المواجهة التالية بين عمرو وعثمان ، فقد وقف عثمان يخطب في الناس ، فإذا عمرو يقاطعه قائلاً :

" اتقِ الله يا عثمان ، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب ... " .

فيرد عثمان :

" وإنك هنالك يا بن النابغة ! حملت جبنك منذ عزلتك عن العمل " .

***

هَذَا مِنْ عَمَلِ مَرْوَان

اغتيال الخليفة عثمان

ونذهب إلى شخصية أخرى ، كان لها أكبر الأثر في الفتنة ، ولعبت أعظم دور في مجرى أحداثها ، إنه : مروان بن الحكم بن أبي العاص .

وعن مروان يقول ابن كثير :

" ... كان عثمان يكرمه ويعظمه ، وكان كاتب الحاكم بين يديه ، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار " .

وعن الحكم ، أبي مروان يقول ابن كثير أيضاً : " وقد كان أبوه من أكبر أعداء النبي ﷺ ، وإنما أسلم يوم الفتح ، وقدم الحكم المدينة ، ثم طرده النبي ﷺ إلى الطائف ، ومات بها .

وكان من أهم مآخذ الثوار على عثمان هو سماحه لعمه الحكم بن أبي العاص وولده مروان بالعودة إلى المدينة ، ثم تنصيب مروان كاتباً له وذلك بعد أن كان النبي ﷺ قد لعن الحكم ومَن ولد ، وغرّبه عن المدينة فلم يستطع العودة إليها ثانية ، حتى أثناء خلافة أبي بكر وعمر .

ولم يكن استقبال عثمان " للحكم بن أبي العاص " أمراً هيناً كما يبدو ، بل كان حدثاً مهماً ذا دلالة خطيرة ووقع سيء في نفوس الأمة . فقد كان الحكم هذا هو الرجل نفسه الذي نفاه الرسول ﷺ ، وظل منفياً طيلة عهدي أبي بكر وعمر .

وهو ما رواه الطبري ، فقال : " ومن جملة الأمور التي يقيمها عليه الناس : " ردّ عمه الحكم بن أبي العاص إلى المدينة ، وكان النبي ﷺ قد طرده إلى الطائف ، ولم يرده أبو بكر ولا عمر " .

وعن سبب نفي الرسول للحكم ، أبي مروان ، يروي ابن الأثير : " ... ونفاه رسول الله ﷺ ، إلى الطائف لأنه يتجسس عليه ، ورآه النبي ، يوماً يمشي ويتخلج في مشيه كأنه يحكيه ، فقال له : كن كذلك ، فما زال كذلك حتى مات " .

وقد كان مروان من أكبر الأسباب في حصار عثمان ؛ لأنه زور على لسانه كتاباً إلى مصر بقتل أولئك الوفد . ولما كان متولياً على المدينة لمعاوية كان يسب علياً كل جمعة على المنبر ، وقال له الحسن بن علي : " لقد لعن الله أباك الحكم ، وأنت في صلبه على لسان نبيه ﷺ ، فقال : لعن الله الحكم وما ولد ، والله أعلم " .

وقد تنازع مروان بن الحكم أمر الخليفة عثمان مع رمزٍ كبير آخر هو : علي بن أبي طالب . أما علي بن أبي طالب ، فقد كان واحداً من أبرز الشخصيات التي لعبت أهم الأدوار في هذه الأحداث المهمة ، وقد تباينت مواقف علي تجاه عثمان بن عفان ، فنراه مرةً يغضب ، ويعلن رفضه الطاعة لأمر الخليفة . لنجده مرةً أخرى يرسل ابنيه الحسن والحسين ليدافعا عن الخليفة . ومرةً ثالثة نراه يتدخل – كوسيطٍ – بين الخليفة وبين الثائرين عليه ، لإصلاح ذات البين ورأب الصدع ، الذي شق صفوف الأمة .

وعندما تشتد الأزمة ويتكاثر الثوار على عثمان نجده يلوذ بعلي ، ومن الحوار التالي يتضح لنا أن عليَّاً بن أبي طالب قد أسدى النصح عدة مرات للخليفة عثمان بن عفان :

" ولما رأى عثمان ذلك جاء إلى علي فدخل عليه بيته ، فقال له : يا بن العم ، إن قرابتي قريبة ولي عليك حق عظيم ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء وهم مصبحيّ ، ولك عند الناس قدرٌ وهم يسمعون منك ، وأحبُ أن تركب إليهم فتردهم عني ، فإن في دخولهم عليَّ تهويناً لأمري وجرأة عليَّ .

فقال علي : على أي شيء أردهم عنك ؟ قال : على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيته لي .

فقال علي : إني قد كلمتك مرة بعد أخرى ، فكل ذلك نخرج ونقول ثم ترجع عنه ، وهذا من فعل مروان بن الحكم وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد ، فإنك أطعتهم وعصيتني .

قال عثمان : فأنا أعصيهم وأطيعك " .

ويخرج علي إلى الناس فينصلح الأمر ، ثم يعود عثمان مرة أخرى ليقول له : " تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليك ، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والأمانة ، فإن البلاد قد تمغضت عليك فلا آمن أن يجيء ركبٌ آخر من الكوفة والبصرة ، فتقول : يا علي اركب إليهم ، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك ... " .

وبالفعل يستمع عثمان إلى علي ويعمل بنصيحته ، فيخرج إلى الناس ويخطب فيهم ، ويرضيهم ، حتى يبكي ويبكون هم أيضاً .

وعن هذا يروي ابن كثير :

" ورجع عليٌ إلى عثمان فأخبره برجوعهم عنه ، وسماعهم منه ، وأشار على عثمان أن يخطب في الناس خطبةً يعتذر إليهم مما كان وقع من الأثرة لبعض أقاربه ، ويشهدهم عليه ، بأنه قد تاب من ذلك وأناب إلى الاستمرار على ما كان عليه من سيرة الشيخين قبله ، وأنه لا يحيد عنها (...) ، ولما كان يوم الجمعة وخطب الناس ، رفع يديه في أثناء الخطبة ، وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم إني أولُ تائبٍ مما كان مني ، وأرسل عينيه بالبكاء ، فبكى المسلمون أجمعون ، وحصل للناس رقة شديدة على إمامهم ... " .

وهكذا كادت الأمور أن تنصلح وتعود إلى نصابها لولا تدخل مروان بن الحكم وتأثر عثمان برأيه ، بالرغم من تحذير أقرب الناس له وهي زوجته نائلة التي قالت له :

" فإنك متى أطعت مروان قتلك " .

ولنستمع إلى هذا الحوار المهم ، الذي غير دفة الأحداث ، بل وغير مجرى التاريخ ، فيروي ابن الأثير :

" فلما نزل عثمان وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية في منزله لم يكونوا شهدوا خطبته ، فلما جلس قال مروان : يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت؟ فقالت نائلة بنت الفرافصة ، امرأة عثمان : لا ، بل أصمت فإنهم واللهِ قاتلوه ومؤثموه ، أنه قد قال مقالة

لا ينبغي أن ينزع عنها . فقال لها مروان : ما أنتِ وذاك ! فوالله قد مات أبوك وما يحسن يتوضأ ! فقالت : مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء ! تخبر عن أبي وهو غائبٌ تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ؟ أمَا والله لولا أنه عمه ، لأخبرتك عنه ما لن أكذب عليه . قالت : فأعرض عنها مروان . فقال : يا أمير المؤمنين أتكلم أم أسكت ؟ قال : تكلم . فقال مروان : بأبي أنت وأمي ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع ، فكنت أول من رضي بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى ، وحين أعطي الخطة الذليلة الذليل ، والله لإقامة على خطيئة يُستغفر منها أجمل من توبة يخوف عليها ، وأنت إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقر بالخطيئة ، وقد اجتمع بالباب أمثال الجبال من الناس . فقال عثمان : فاخرج إليهم فكلمهم ؛ فإني أستحي أن أكلمهم . فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : ما شأنكم قد اجتمتعم كأنكم قد جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اخرجوا عنا ، والله لئن رمتونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غبَّ رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا " .

هكذا نرى عثمان يستجيب لرأي مروان بن الحكم الذي يخرج إلى الناس يستفزهم ويهددهم . وهكذا أبى عثمان الرضوخ لنصح علي وزوجته نائلة اللذَيْنِ عادا إلى الخليفة يؤكدان سوء قصد مروان ، محذرين إياه من مصير غير محمود يقوده إليه مروان ابن الحكم .

ويذهب البعض إلى علي بن أبي طالب ويخبره بما قاله مروان ، فيقوم علي غاضباً ، ويمضي إلى عثمان ، يقول له :

" أمَا رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به ! والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه ! وايم الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك ! وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغلبت على رأيك " .

هكذا إذن بدأ عقد حكم عثمان ينفرط ، كما أخذت ثقوب قميص ولايته تتسع ، وبينما كان أقرب أقربائه وأخلص أصدقائه ينفضون من حوله كانت أفواج الثائرين عليه تتثال وتتوالى لتحاصره في داره ...

وتقترب الأحداث من نهايتها ، فكانت المواجهة الصريحة بين الخليفة عثمان بن عفان الواقف فوق سطح داره وبين الثائرين عليه ، الذين حاصروا دار الخلافة أربعين يوماً ، وكان هذا الحوار ، حيث قال عثمان :

" أيها الناس ما الذي نقمتم علي ، فإني معتبكم ومعطيكم ما تحبون .

قالوا : حميت الكلأ والماء حتى بعته على المسلمين ولا صاحب له .

قال : فهو لكم حلالٌ مباح .

قالوا : مزقت كتاب الله ، يا عدو الله .

قال : فإني لم أرد بذلك إلا خيراً .

قالوا : إنك لم تشهد غزوة بدر .

قال : إن رسول الله خلفني على بنته وكانت عليلة .

قالوا : لم تشهد بيعة الرضوان .

قال : ما قسم الله لي في ذلك حظاً.

قالوا : زرت يوم أحد ويوم حنين ويوم خيبر وغزوة ذات السلاسل .

قال : قد عفى الله عني .

قالوا : نفيت أخيارنا وصبرت علماءنا ووليت الأحداث السفهاء الحكم في أموالنا ودمائنا ، حتى صاروا علينا وظلمونا في ديارنا وأموالنا ، وإذا نفيت الواحد منا أحرقته حتى يموت غريباً وحيداً لا كفن له إلا أن يتصدق عليه " .

ولندع المؤرخ ابن كثير يروي لنا مشهد اغتيال ثالث الخلفاء الراشدين : عثمان بن عفان .

" ولما رأى عثمان ذلك عزم على الناس لينصرفوا إلى بيوتهم . فانصرفوا كما تقدم ، فلم يبقَ عنده أحد سوى أهله ، فدخلوا عليه من الباب ومن الجدران ، وفزع عثمان إلى الصلاة وافتتح سورة طه ، وكان سريع القراءة . فقرأها والناس في غلبة عظيمة ، قد احترق الباب والسقيفة التي عنده ، وخافوا أن يصل الحريق إلى بيت المال . ثم فرغ عثمان من صلاته وجلس وبين يديه المصحف ، وجعل يتلو هذه الآية : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

فكان أول من دخل عليه رجل يقال له : الموت الأسود . فخنقه خنقاً شديداً حتى غشي عليه ، وجعلت نفسه تتردد في حلقه ، فتركه وهو يظن أنه قد قتله .

ودخل ابن أبي بكر فمسك بلحيته ثم ندَّ وخرج .

ثم وكَّل عليه آخر ومعه سيف فضربه به فاتقاه بيده فقطعها . فقيل : إنه أبانها ، وقيل بل قطعها ولم يبنها .

إلا إن عثمان قال له : واللهِ إنها أول يد كتبت المفصَّل .

فكان أول قطرة دم سقطت على هذه الآية : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : 137] .

ثم جاء آخر شاهراً سيفه ، فاستقبلته نائلة بنت الفرافصة لتمنعه ، وأخذت السيف ، فانتزعه منها فقطع أصابعها .

ثم إنه تقدم إليه فوضع السيف في بطنه فتحامل عليه ، رضي الله عن عثمان .

وفي رواية أن الغافقي بن حرب تقدم إليه بعد محمد بن أبي بكر فضربه بحديدة في فيه ، ورفس المصحف الذي بين يديه برجله ، فاستدار المصحف ، ثم استقر بين يدي عثمان رضي الله عنه ، وسالت عليه الدماء .

ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف ، فمانعته نائلة فقطع أصابعها ، فولَّت فضرب عجيزتها بيده ، وقال : إنها لكبيرة العجيزة . وضرب عثمان فقتله " .

وذكر ابن جرير الطبري : " أنهم لما أرادوا حزَّ رأسه بعد قتله ، فصاح النساء وضربن وجوههنَّ ، فيهن امرأتان نائلة وأم البنين ، وبناته . فقال ابن عديس : اتركوه . فتركوه .

ثم مال هؤلاء الفجرة على ما في البيت فنهبوه . وذلك أنه نادى منادٍ منهم : أيحل لنا دمه ولا يحل لنا ماله ؟! فانتهبوه ثم خرجوا فأغلقوا الباب على عثمان وقتيلين معه " .

***

إِنِ الحُكْمُ إِلا لِلَّهِ ... كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ

الجمل القاتل

بعد اغتيال الخليفة عثمان بن عفان ، رأى الثوار أنه من الخير لهم الإسراع بعقد البيعة لخليفة جديد ، فمضوا إلى كبار القوم يعرضون عليهم منصب الخلافة ، إلا إن الجميع رفضوا على نحوٍ أو آخر ، وفي النهاية ، وبعد إلحاح ، يقبل علي بن أبي طالب البيعة له بالخلافة ، فتمت له البيعة في نهاية عام 35 الهجري .

ومن ظاهر الأمر يبدو أن عليًّاً – وغيره – كان يرفض تولي هذا المنصب الخطير في ظل أوضاع متفجرة ، وأمور مضطربة ، ويبدو أنه كان على حقٍّ في ذلك ، إذ سرعان ما ظهرت حقيقة هذا الأمر حين بعث علي بولاته الجدد إلى الأمصار .

فلم يلبث أن رجع والي الكوفة الجديد – عمارة بن شهاب – إلى علي يخبره أن القوم هناك يأبون ولايته ، ويطلبون ثأر عثمان .

أما أهل مصر فقد انقسموا على أنفسهم ، فارتضى قسمٌ منهم بيعة علي بن أبي طالب ، وطالب قسمٌ آخر بدم عثمان .

وكذلك أيضاً كان حال الناس بالبصرة .

أما أهل الشام فكانوا – فيما يبدو – قد حزموا أمرهم ، فنرى بعضهم يخرج معترضاً سبيل الوالي الجديد – سهل بن حنيف – ويمنعونه من دخول الشام ويردونه إلى المدينة غير معترفين بإمرته عليهم .

وكان أحدهم قد جاء الشام حاملاً قميص عثمان بن عفان ، عليه دماؤه ، وكذلك أصابع زوجته نائلة .

فأخذ معاوية بن أبي سفيان القميص والأصابع ووضعها على المنبر ، وأخذ يستنفر الناس ويحثهم على الثأر لعثمان .

وقد عبر مبعوث ، كان أرسله معاوية إلى علي ، عن هذا الحال فقال : "... تركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان ، وهو على منبر دمشق ... " .

وكان على الخليفة الجديد أن يتحرك بسرعة إزاء هذه الفتنة ، وهكذا رأي علي بن أبي طالب وجوبَ القضاء على هذه الفتنة بالقوة ، فأعد جيشه وجهزه وعزم على الخروج من المدينة متجهاً إلى الشام .

أثناء ذلك كان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام قد خرجا من المدينة إلى مكة بحُجة العمرة ، وهناك التقى الاثنان بعائشة بنت أبي بكر ، التي كانت قد آثرت البقاء بمكة حين علمت باغتيال عثمان وولاية علي ، ودعت إلى الأخذ بثأر عثمان ، واجتمع أهل مكة حول عائشة ، فصارت تقول لهم :

" أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا صبحة ولا عذراً بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واللهِ لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم " .

وهنا تقدم بنو أمية وتصايحوا منادين بالثأر لعثمان ، وانضم إلى هذا الجمع طلحة والزبير . وانتهى الأمر باتفاق الجميع على الخروج إلى البصرة عاقدين العزم على القصاص من قتلة عثمان ، وعلى رأسهم عائشة في هودج على جمل ، وطلحة والزبير ومروان بن الحكم .

فلما علم علي بن أبي طالب بأمرهم غيَّر وجهة سير جيشه من الشام إلى البصرة ، ومضى يشق طريقه إلى هناك ، ثم أرسل علي رسولاً إلى عائشة وطلحة والزبير ، ونجح هذا الرسول في تقريب وجهات النظر ، وإطفاء نار الفتنة . إلا إن زعماء قتلة عثمان خافوا أن يكونوا كبش فداء لصلح بين الفريقين ، فاتفقوا فيما بينهم على إذكاء نار الحرب بين

جيش علي وجيش عائشة وطلحة والزبير ، وانتظروا حتى نام الجميع ، وقبل الفجر هاجموا القوم في الظلام ، فنهض كلٌّ يدافع عن نفسه ، وتطور الأمر فصار حرباً شعواء ... تساقطت فيها أعداد كبيرة من القتلى ، حتى إن " علي " تمنى الموت .

أما عائشة فقد أفضت من هودجها بمصحف إلى قاضي البصرة وأمرته أن يدعو الخصوم إليه ، ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى توجهت السهام أيضاً إلى هودج عائشة ترشقه بلا هوادة ، " ... حتى بقي مثل القنفذ " ، أما هي فرفعت يديها صوب السماء وشرعت تدعو على قتلة عثمان .

وصارت أيدي أتباع عائشة تتوالى وتتلاحق على قيادة جملها ، وهم يقولون : " لا يزال الحرب قائماً مادام هذا الجمل واقفاً ، وصارت أيدي هؤلاء أيضاً تتقطع ، حتى قيل إنه قطعت يد سبعين رجلاً " .

وقيل أيضاً : " ولم ترَ واقعةٌ أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الواقعة " .

وممن أمسكوا بخطام الجمل مؤمنين بفكرة استنفار الناس للقتال من خلال استمرار الجمل في التقدم ، كان عبد الله بن الزبير ، ابن أخت عائشة ، فقيل إنه جُرح في سبيل ذلك سبعة وثلاثين جرحاً .

وقد تنبه أيضاً أصحاب علي إلى أهمية الجمل في استمرار المعركة ، ورأوا في سقوطه إنهاءً للحرب ، فعملوا على عقره ، وبالفعل ما كاد يسقط الجمل حتى فُصل الأمر وحُسمت المعركة لصالح علي وأصحابه .

ومما قيل أيضاً في هول معركة الجمل :

" ... وقد علم من بين مكة والمدينة والبصرة يوم الوقعة ، وذلك مما كانت النسور تتخطفه من الأيدي والأقدام ، فيسقط منها هنالك " .

ويروي ابن الأثير أيضاً على لسان أحد المشاركين في معركة الجمل ، وهو يصف شدة القتال وقسوته فيقول :

" لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى فُنيت ، وتطاعنا بالرماح حتى تكسرت وتشبكت في صدورهم وصدورنا ، حتى لو سُيرت عليها الخيل لسارت ... " .

هكذا إذن انتهت هذه المعركة ، وخرج منها علي بن أبي طالب وأنصاره منتصرين .

أما عائشة فلقد أعادها علي مكرمةً إلى مكة ، حيث قضت بعض الوقت ثم رجعت إلى المدينة .

وأما طلحة بن عبيد الله فقد قُتل في هذه المعركة ، بعد أن أصابه سهم طائش قيل إن راميه كان مروان بن الحكم .

وأما الزبير بن العوام : فكان قد التقى علي بن أبي طالب أثناء المعركة ، فذكّره علي بأنه وإياه قد سمعا معاً حديثاً للنبي ﷺ ، يقول فيه للزبير أنه سيقاتل عليّاً وهو له ظالم . وعندما سمع الزبير ذلك ترك ساحة المعركة ورجع ... وفي طريق عودته يمر الزبير بنفر من أصحاب علي ... فيتآمرون على اغتياله ... فيقتفي أحدهم أثره حتى إذا حان وقت الصلاة ، ويشاء الزبير الصلاة ، فيسأله قاتله أن يتقدمه لكي يؤمه في الصلاة ، وما أن يُقدم الزبير على ذلك إذا بطعنةٍ قاتلةٍ تُوجه إليه من خلفٍ لتقضي عليه .

***

معركة صفين

انتهت معركة الجمل بما انتهت إليه ، وعاد علي بن أبي طالب من البصرة إلى الكوفة ، وهو لم ينسَ بعد الأمر الذي كان قد خرج إليه ، وهو إخضاع الشام لسلطانه . فبادر بالكتابة إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب منه الدخول في طاعته والإقرار بخلافته .

ويستدعي معاوية كبار قومه يستشيرهم في الأمر ، فينصحونه بالتمسك بالمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان بن عفان .

وكان ممن أشاروا على معاوية بذلك : عمرو بن العاص ، وهو الذي كان من المحرضين على عثمان بسبب عزل عثمان له من ولاية مصر ، فلما سأله معاوية أن يبايعه ، طلب منه عمرو أن يعطيه أولاً ولاية مصر ، وقال له :

" ... والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك ... " .

فلما استجاب معاوية لشرط عمرو ؛ قال عمرو في ذلك البيتين التاليين :

مُـعَاوِيَة لا أعْطِيْك دِيْنِي مَا لمْ أنَلْ ... بـهِ مِـنْك دُنْيَا فانْظرْ كَيْف تَصْنَعُ

فإنْ تُعْطِنِيْ مِصْرَاً فأرْبَح بصَفْقَةٍ ... آخُذ بـهَـا شَـيْـخَـاً يَـضُـرُّ وَيَـنْفعُ

ويشد علي بن أبي طالب الرحال مـرة أخرى ، ويقود جيـشاً يتألف من 150 ألف مقاتل ، ومعه عمار بن ياسر وحجر بن عدي والأشتر النخعي ، وكان معاوية قد أعد جيشاً لا يقل في قوته عن جيش علي ، وكان على رأسه عمرو بن العاص وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وغيرهما .

ومع بداية العام السادس والثلاثين الهجري ؛ كان الجيشان قد التحما بموضع يقال له صفين .

واستعر أوار الحرب بين الفريقين ، واستمرت لعدة شهور . وقبيل نهاية المعركة بليلة واحدة يشتد القتال والقتل بين الفريقين بصورة لم يسبق لها مثيل ... وعن هذه الليلة الدامية يروي ابن كثير :

" ... ثم حانت صلاة المغرب ، فما صلى بالناس إلا إيماء صلاتي العشاء ، واستمر القتال في هذه الليلة كلها ، وهي من أعظم الليالي شراً بين المسلمين ، وتسمى هذه الليلة ليلة الهرير ، وكانت ليلة الجمعة ، تقصفت فيها الرماح ونفدت النبال ، وصار الناس إلى السيوف . والناس يقتتلون من كل جانب فذكر غير واحد من علمائنا – علماء السير – أنهم اقتتلوا بالرماح حتى تقصفت وبالنبال حتى فنيت وبالسيوف حتى تحطمت . ثم صاروا إلى أن تقاتلوا بالأيدي والرمي بالحجارة والتراب في الوجوه وتعاضوا بالأسنان ، يقتتل الرجلان حتى يثخنا ، ثم يجلسان يستريحان وكل واحد يهمز على الآخر ويُهمز عليه ، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون " .

وفي الصباح كان فريق علي قد اقترب من النصر ، فلما رأى عمرو بن العاص الهزيمة توشك أن تلحق بجيش الشام أشار على معاوية برفع المصاحف ، مطالباً بتحكيم القرآن في الخلاف بينه وبين علي بن أبي طالب .

وهنا وقع الشقاق بين صفوف حزب علي ، ولم يقتصر هذا الشقاق على أمر الحرب والسلام ، وإنما تجاوزه فصار فُرقة سياسية ، وصدعاً دينياً .

وعندما رأى علي الخلاف يدب بين أصحابه ، بادر إلى تحذير قومه وأنصاره من حيلة معاوية وعمرو وأعوانهما ، ويصفهم بأنهم :

" ... ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ... " – على حد رواية كل من ابن الأثير وابن كثير .

ولكن يبدو أن البعض قد خُدع برفع المصاحف والدعوة إلى تحكيم القرآن .

وكان هذا ما انتهت إليه معركة صفين ، وأسفرت عن سبعين ألف قتيل . وقد رُويَ أن الأرض ضاقت بالقتلى ، فكان يدفن في القبر الواحد 50 قتيلاً .

ثم عاد علي إلى الكوفة ، ومعاوية إلى الشام .

الخوارج يغتالون الخليفة

ارتضى علي بن أبي طالب مبدأ الاحتكام إلى القرآن للفصل في النزاع القائم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ، ووكَّل أبا موسى الأشعري نائباً عنه في المفاوضات مع عمرو بن العاص نائباً عن معاوية بن أبي سفيان . أما المبدأ الذي قامت عليه عملية التحكيم وارتكنت إليه :

" فما وجد الحكمان في كتاب الله ... عملا به ، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة " .

وما أن قبل عليٌ بهذا المبدأ خرجت عليه جماعة من أنصاره وأعلنت رفضها للتحكيم ، وانحازت هـذه الجـمـاعة برجالها – الذين بلغ عددهم عدة آلاف – إلى موضع يقال له " حروراء " ، فكان ذلك إيذاناً بظهور فرقة " الخوارج " إلى الوجود .

وكانت عائشة بنت أبي بكر قد شاءت معرفة قصة هؤلاء الخوارج ، فسألت عبد الله بن شداد عنهم ، فقال لها :

" ... فإن علياً لما كاتب معاوية وحكم الحكمين ، خرج عليه ثمانية آلاف فارس من قراء الناس ، فنزلوا بأرض يقال لها حروراء – من جانب الكوفة – وأنهم عتبوا عليه فقالوا : انسلخت من قميص ألبسكه الله ، واسم سمَّاكَ به ، ثم انطلقت فحكمت في دين الله ، ولا حكم إلا لله ... " .

ويروي لنا ابن جرير عن كيفية نشأة الخوارج ، فيروى :

" ... أن علياً بينما هو يخطب يوماً ، إذ قام إليه رجل من الخوارج ، فقال : أشركت في دين الله الرجال ولا حكم إلا لله .

فتنادوا من كل جانب : لا حكم إلا لله ، لا حكم إلا لله ، لا حكم إلا لله . فجعل علي يقول : " هذه كلمة حق يراد بها باطلٌ " .

وفي رواية أخرى نقرأ ما أنكره الخوارج على علي بن أبي طالب :

" ... وأنهم عتبوا عليه في كونه حكّم الرجال ، وأنه محا اسمه من الإمرة ، وأنه غزا يوم الجمل فقتل الأنفس الحرام ، ولم يقسم الأموال والسبي " .

ولنقترب أكثر من هؤلاء الخوارج لنستمع إلى حديثٍ لهم دار في أحد اجتماعاتهم ، يقول ابن كثير :

" واجتمعوا أيضاً في بيت زيد بن حصن الطائي السبنسي ، فخطبهم وحضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتلا عليهم آيات من القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : 26] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : 44] ، وكذا التي بعدها : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : 45] و : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : 47] . ثم قال : فاشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهدى ، ونبذوا حكم الكتاب وجاروا في القول والأعمال ، وأن جهادهم حقٌّ على المؤمنين . فبكى رجل منهم يُقال له : عبد الله ابن شجرة السلمي ، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس ، وقال في كلامه : اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يُطاع الرحمن الرحيم ، فإن أنتم نجحتم وأطيع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب المطيعين له العاملين بأمره ، وإن فشلتم فأيُّ شيء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته ؟ " .

***

وهكذا نرى الخوارج يعارضون فكرة التحكيم ، محرضين على جهاد من آمن بهذا المبدأ وقتاله . وبناءً على ذلك كفّروا معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ، والخليفة نفسه – علي بن أبي طالب – واعتبروا ثلاثتهم (أئمة الضلال) وعملوا على الخلاص منهم واغتيالهم .

وكان من أهم المبادئ السياسية التي آمنت بها فرقة الخوارج مبدأ اختيار الأمة للخليفة ، الذي لا يشترط فيه – من وجهة نظر الخوارج – أن يكون من قريش ، فهم يرون أن الخلافة حق لكل إنسان تتوافر فيه شروطها ، وليس منها أبداً الانتماء القبلي أو العرقي أو الطبقي .

يقول د.محمود إسماعيل في كتابه الحركات السرية في الإسلام :

" وقد شكل الخوارج أحد أحزاب المعارضة في الإسلام ، وكان فكرهم السياسي معبراً عن قطاع عريض من الجماهير الساخطة على الخلافة ، ورأيهم في الخلافة يجعلهم بحق (جمهوريو الإسلام) ، فبينما قصر أهل السنة حق الإمامة على قريش ، وجعلها الشيعة حكراً على آل البيت وحدهم ، نادى الخوارج بأنها حقٌّ متاحٌ لكل مسلم دون نظر إلى أصله أو عصبيته " .

وفي كتاب " جذور الفتنة " يقول حسن صادق :

" وهم مع الاختيار والبيعة كطريق لنصب الإمام ، وضد فكرة الشيعة في الوصية والنص . وهم يرون أن الإمامة من الفروع ، وينكرون قول الشيعة إنها من أصول الدين ، فمصدرها عندهم ليس الكتاب والسنة وإنما الرأي " .

ومن أهم المبادئ الدينية التي دعا إليها الخوارج كان قولهم بأن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد في النار .

وقد غالت بعض فرق الخوارج في التكفير حتى إن إحدى فرقهم ، وهي فرقة الأزارقة قد كفَّرت كل من يخالفها من المسلمين ، وذهبت إلى أبعد من ذلك ، فأحلت دمه ودم أولاده ، واستحلت زوجته ، كما يرى أتباع فرقة الأزارقة الخارجية أن الصلاة مع بقية المسلمين حرام ، كما حرموا أيضاً الزواج منهم أو أكل ذبائحهم ، واعتبروا ديار المسلمين ديار حرب .

أما فرقة الأباضية – وهي فرقة من الخوارج أيضاً – فكانت لها أراء أكثر اعتدالاً ، فكانت من أقرب فرق الخوارج إلى فكر أهل السنة ، إلا إنهم يخالفونهم في الأخذ

بالرأي بدلاً من القياس والإجماع ، ويخالفونهم أيضاً في رفضهم للتشبيه ، فهم يؤمنون بالتنزيه المطلق للذات الإلهية ، ولذلك فهم يعتقدون أن رؤية الله منفية ، سواء في الدنيا أو في الآخرة .

***

وإذا عدنا مرة أخرى إلى الأحداث التاريخية ، وجدنا عليّاً بن أبي طالب قد عقد العزم على حرب الخوارج مما بلغه عنهم أنهم قد "عاثوا في الأرض فساداً ، وسفكوا الدماء ، وقطعوا السبيل ، واستحلوا المحارم " ، ومما يُروى في هذا الشأن أن بعضهم لقي عبد الله بن خباب :

" فقالوا : مَن أنت . فقال : أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ ، وأنكم قد روعتموني . فقالوا : لا بأس عليك ، حدثنا ما سمعت من أبيك . فقال : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " سَتَكُوْنُ فِتْنَةٌ القَاعِدُ فِيْهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ ، وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ المَاشِي ، وَالمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي " .

فاقتادوه بيده ، فبينما هو يسير معهم ، إذ لقي بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة ، فشق جلده ، فقال له آخر : لِمَ فعلت هذا وهو لذمي ؟ فذهب إلى ذلك الذمي فاستحله وأرضاه . وبينما هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة ، فأخذها أحدهم فألقاها في فمه ، فقال له آخر : بغير إذن ولا ثمن ؟ فألقاها ذاك من فمه . ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب فذبحوه ، وجاءوا إلى امرأته ، فقالوا : إنكِ امرأة حبلى . فقالت : ألا تتقون الله! فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها " .

وكان علي بن أبي طالب قد دعا هؤلاء الخوارج إلى العودة إلى صفوف أنصاره ، وخاطبهم فقال لهم :

" ... فارجعوا إلى ما خرجتم منه ، ولا ترتكبوا محارم الله فإنكم قد سولت لكم أنفسكم أمراً تقتلون عليه المسلمين ، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيماً عند الله ، فكيف بدماء المسلمين ... " .

وبالفعل يرجع بعضهم إلى صف علي . ويأبى البعض الآخر ، لتكون حرب بينه وبينهم . ويقاتلهم علي وينتصر عليهم في موقعة النهروان في صفر من عام 38 هـ . ولكنهم لم يكفوا عن الخروج عليه ، فحاربهم على عدة مرات في العام نفسه وهزمهم .

وكان أن اجتمع ثلاثة من الخوارج ، وهم : عبد الرحمن بن عمرو ، المعروف بابن ملجم ، وعمرو بن بكر ، والبرك بن عبد الله ، وتآمروا على اغتيال كلٍّ من علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص .

واتفقوا على خطة الاغتيال وحددوا لتنفيذها : يوم السابع عشر من رمضان لعام 40 هـ . أما ساعة التنفيذ فكانت : وقت صلاة الفجر .

وأخذ المتآمرون الثلاثة أسلحتهم ومضى كلٌّ منهم قاصداً هدفه .

فاتجه ابن الملجم إلى الكوفة كي يغتال عليّاً ، وقصد البرك الشام ليغتال معاوية ، ومضى عمرو إلى مصر ليغتال عمرو .

ومرت الأيام وحانت ساعة تنفيذ المؤامرة .

وفي الفجر ، خرج معاوية إلى الصلاة فهاجمه البرك وطعنه ، وأصيب معاوية إصابة خطيرة ، ولكنها لم تكن قاتلة ، وتم القبض على البرك وأعدم .

وكذلك هاجم عمرو بن بكر من ظن أنه عمرو بن العاص ، فأرداه قتيلاً ، ولكن بعد ذلك اتضح أن القتيل ليس عمرو بن العاص وإنما صاحب الشرطة ، خارجة بن أبي حبيبة ، وكان عمرو قد أنابه للصلاة بدلاً منه .

وهكذا نجا عمرو وجرح معاوية .

أما ابن ملجم فكان قد سار إلى الكوفة ، وأقام بها ينتظر الموعد المتفق عليه ، وكتم أمره وهدفه ، ولم يبح به إلا لامرأة حسناء كانت تحقد هي أيضاً على علي بن أبي طالب لقتله أبيها وأخيها في موقعة النهروان ، وعرض عليها ابن ملجم الزواج فوافقت على أن يكون مهرها : رأس علي بن أبي طالب .

وشرع الاثنان يدبران أمر اغتيال علي ، واتفقا أن يساعد ابن ملجم في هذه المؤامرة اثنان آخران .

وجاء السابع عشر من رمضان ، فكمن الثلاثة ينتظرون خروج علي من داره إلى الصلاة . ويخرج علي ويسير منادياً للصلاة ، لتنهض فرقة الاغتيال ، ويتمكن ابن ملجم من علي ، ويهوي بسيفه عليه ليصيبه في رأسه إصابة قاتلة .

وبينما كان دم علي يسيل من رأسه ليخضب لحيته ؛ كان ابن ملجم يصيح : " لا حكم إلا لله ، ليس لك يا علي ولا لأصحابك " .

وفرَّ صاحبا ابن ملجم ، ونجح أحدهما بالفعل في الهرب ، أما الثاني فقُتل .

وتم اعتقال ابن ملجم ، واقتيد إلى علي في منزله ، فسأله علي : " أي عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟

قال : بلى .

قال : فما حملك على هذا ؟

قال : شحذته أربعين صباحاً ، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه .

فقال علي : لا أراك إلا مقتولاً به ، ولا أراك إلَّا من شر خلق الله ... " .

وفاضت روح علي بن أبي طالب . أما ابن ملجم فقد قُتل ثم أحرق . وقد قيل إنهم قبل أن يقتلوه قاموا بقطع يديه ورجليه وسمل عينيه ، فلما شاءوا قطع لسانه قال لهم : إني أخشى أن تمر علي ساعة لا أذكر الله فيها . ولكنهم قطعوا لسانه ... ثم قتلوه ثم أحرقوه ... " .

***